رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية في بلاد المسلمين
وسائل دعمها، وأسباب طمسها

إعداد

الدكتور ضياء حسن محمد الكنيبص
عضو هيئة إفتاء أهل السنة والجماعة في العراق

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية .. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ الذي علَّمَ الإنسانَ مالم يعلم، علَّمَه البيانَ ومواضعَ الكلم، ودلَّه وهَداه، وثقَّفَه وربَّاه، فصارَ ذا نهجٍ قويم، وصاحبَ صراطٍ مستقيم، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ الأَمين، وعلى آلِه وصحابتِه أجمعين، وعلى زوجاتِه الطاهراتِ من الأدناسِ، وعلى التابعين، ومَن تبعَهم إلى يومِ الدينِ، أَمَّا بعدُ:

فإنَّ موضوعُ الثقافةِ الإسلاميةِ يحتاجُ إلى وقفةٍ ودراسةٍ ثمَّ تعميم؛ لأَنَّ المسلمَ أَصبحَ مهدَّدًا بالاستعمارِ الفكريِّ في أيةِ لحظةٍ؛ لما انتشرَ من وسائل الاتصالِ الحديثةِ، بحيثُ صارت الأفكارُ والنظرياتُ والمعتقداتُ المخالفةُ للإسلامِ تُعرَضُ عليه ليلَ نهار، وتصلُ إلى بيتِه، وغرفتِه، وجوالِه.

من هنا رأيتُ أن أكتبَ عمَّا يساعدُ في بناءِ ثقافتِنا والمحافظةِ عليها، والحذرِ من الثقافةِ التي تعملُ على هدمِها، فجاءت المشاركةُ في ثلاثةَ مطالبَ ومقدِّمةٌ، الأولُ : للحديثِ عن مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، تحدَّثتُ فيه عن الركائزِ التي تقومُ عليها ثقافةِ المسلمين، مبيِّنًا حقيقةَ هذه المقوماتِ وآثارَها، والثاني : للبحثِ عن وسائلِ دعمِ تلك المقوماتِ، فمقوماتُ ثقافتِنا موجودةٌ في كلِّ بلدٍ من بلادِ المسلمين، ولكنَّها معطَّلةٌ، فلا بدَّ من دعمِها لتنهضَ ثقافتُنا وتنبني، وأَمَّا الثالثُ : فبيَّنتُ فيه عددًا من الأسبابِ التي أدت إلى طمسِ الثقافةِ الإسلاميةِ في عددٍ من بلدانِ المسلمين، من قِبلِ دعاوى هدّامةٍ، عملت على هدمِ ثقافتِنا في تلك البلدانِ، مبيِّنًا حقيقتَها، ومدى خطورتِها.

أسألُه سبحانَه أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكريمِ، وذخرًا ليومِ الدينِ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم. والحمدِ للهِ ربِّ العالمين.

المطلب الأول: مقومات الثقافة الإسلامية

لكلِّ ثقافةٍ مقوماتٌ تقومُ عليها، وركائزُ تعتمدُ عليها، ومقوماتُ ثقافتِنا نابعةٌ من أُصولِ ديننا الحنيفِ، القرآنِ العظيمِ، والسنةِ النبويةِ، فهما أصلُ ثقافتِنا، ومنبَعُ مقوماتِها، فقد اشتملا على أصولِ العلومِ، واحتويا أخلاقًا وآدابًا وسلوكًا تنظِّمُ حياةَ الفردِ والمجتمعِ، ولا يمكنُ لثقافتِنا أن تزدهرَ في بلادِنا مالم تَقُمْ على هذين الأصلين العظيمين، ويمكنُ أنْ نُجملَ مقوماتِ ثقافتِنا في أربعِ ركائزَ، هي: العقيدةُ الإسلاميةُ، والفقهُ الإسلاميُّ، والتاريخُ الإسلاميُّ، واللغةُ العربيةُ، وسنتحدَّثُ عنها فيما يلي:

أولاً: العقيدة الإسلامية

عقائدَ الشعوبِ والمجتمعاتِ من أهمِّ مرتكزاتِ ثقافاتِهم، بل هي إحدى مقوماتِ ثقافاتِهم التي تعتمدُها وتستمدُ منها قوامَها، فلا خِلافَ في أنَّ الأفكارَ والتصوراتِ نابعةٌ من معتقداتِ الشعوبِ ودياناتِهم، والعقيدةُ الإسلاميةُ منبَعُ أفكارِ المسلمين وتصوراتِهم لما حولَهم، ومصدرُ تفسيراتِهم للكونِ والطبيعةِ،والحالِ والمآل، والثوابِ والعقابِ، فكانت أهمَّ مقوماتِ ثقافتِهم وأُولى ركائزِ شخصيتِهم[(١)].

والعقيدةُ الإسلاميةُ[(٢)]: هي الإيمانُ الجازمُ باللهِ ﷻ، وما يجبُ له في أُلوهيتِه وربوبيتِه وأَسمائِه وصفاتِه، والإيمانُ بملائكتِه وكُتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ، وبالقدرِ خيرِه وشرِّه. والإيمانُ بالجنةِ والنارِ وأُمورِ الغيبِ، ويجبُ معرفةُ الكفرِ

(١) يُنظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب: ٥٨.

(٢) يُنظر: مدخل إلى الثقافة الإسلامية: ٨١.

وأنواعِه ونحوِ ذلك، فهذه الأصولُ في العقيدِة تنمِّي ثقافةَ المسلمِ، وتزوِّدُ إيمانَه، وتُغذّي روحَه، فيحقِّقُ إيمانَه، ويذَرُ كلَّ ما يخالِفُ معتقدَه من الخرافاتِ والأساطيرِ التي سيطرت على أفكارِ شعوبِ كثيرٍ من بلدانِ العالمِ، ويكفُرُ بكلِّ معبودٍ سوى اللهِ ﷻ.

والعقيدةَ الإسلاميةَ جعلت ثقافةَ المسلمين تحمِلُ حقائقَ يقينيةً، وتفسيراتٍ حقيقةً ودقيقةً للوجود، فهي لا تؤمنُ بالأساطيرِ ولا بالخرافاتِ التي هي من ثقافاتِ الشعوبِ الأخرى.

والعقيدةُ الإسلاميةُ أكسبَت ثقافةَ المسلمين خصائصَ عظيمةً ميّزتها عن الثقافاتِ الأخرى، فهي ربانيةُ المصدرِ والمنشأ، لأَنَّ أصولهَا القرآنُ الكريمُ والسنةُ النبويةُ، فالإيمانُ باللهِ ﷻ، وبوجودِه، وربوبيتِه، ووحدانيتِه، وبأسمائه وصفاتِه، أساسُ الثقافةِ الإسلاميةِ، وميزةٌ اكتسبَت بها الأمةُ الإسلاميةُ الخيّريةَ والأفضليةَ على الأُممِ، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [آلأ عمران: ١١٠].

ومن خصائصِ ثقافتِنا: أنَّها ثابتةٌ لا تتغيرُ؛ كونهُا معتمدةً على العقيدةِ الإسلاميةِ، فهي ثابتةٌ بثباتِ مصدرِها، وكلُّ ما يتعلقُ بالحقيقةِ الإلهيةِ ثابتُ الحقيقةِ وثابتُ المفهومِ، وغيرُ قابلٍ للتغيير[(١)].

والعقيدةُ الصحيحةُ لها أهميةٌ كبيرةٌ في نفوسِ المسلمين، ولها أثرٌ كبيرٌ على حياةِ المسلمِ وآخرته، فبها تُحقَّقُ الغايةُ التي خُلِقَ لها العبادُ؛ وهي توحيدُ الله ﷻ

(١) يُنظر: أضواء على الثقافة الإسلامية، د. نادية شريف العمري: ٢٢.

وإفرادُه بالعبادة، فمن آثارِها[١] أنّها سببُ اجتماعِ المسلمين ووحدتِهم، ومن ثَمَّ لها أثرٌ في نموِّ ثقافتِهم ووحدتِها،كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والتمسك بالعقيدة الصحيحةِ يوفّر الأمنَ والطمأنينة، والاستقرارَ في النفسِ والمجتمعِ، وبالتالي تظهرُ الشخصيةُ المسلمةُ على قدرٍ كبيرٍ من الأُلفةِ مع المسلمينِ، وحُبِّ الاجتماعِ على الخيرِ، والشعورِ بالطمأنينةِ والاستقرار.

ثانياً: الفقه الإسلامي

الفقهُ الإسلاميُّ من مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ التي ترتكزُ عليها ثقافةُ المسلمين، وكلُّ تعاملاتِ المسلمين مبنيةٌ على الفقهِ الإسلاميِّ، فتعاملُ المسلمِ معتمِدٌ على الفقهِ، ومَلبسُه وهيئتُه كذلك، ومأكلُه ومشربُه، وزواجُه وطلاقُه، وبيعُه وشراؤه، وخصوماتُه، بل حتى قضاؤه للحاجةِ؛ مبنيٌّ على الفقه، فعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ، فَقَالَ: أَجَلْ: «**لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ**»[٢].

فتقاليدُ المسلمين، وعاداتُهم، ومعاملاتُهم، وهيئاتُهم، ترتكزُ على هذا الموروثِ الثقافيِّ الإسلاميِّ الذي لم تُؤتَ أُمَّةٌ هديَه، ولم تَعرفِ الشعوبُ مثلَه، فهو نظامٌ ربانيٌّ، إرشاديٌّ، عباديٌّ، سياسيٌّ، اقتصاديٌّ، ثقافيٌّ، اجتماعيٌّ، تجاريٌّ، نظَّمَ حياةَ المسلمِ كلَّها: تعامُلَ المسلمِ مع ربِّه، وتعامُلَه مع العبادِ، وتعامُلَه مع

---

(١) يُنظر معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، الشيخ الدكتور صالح الفوزان: ص٤١.

(٢) صحيح مسلم: حديث رقم (٢٦٢).

إخوانِه المسلمين، وتعامُلَه مع الكافرين، وحَفِظَ حقوقَ الإنسانِ وكرامتَه.

وقد أرشدَنا الفقهُ إلى التنظُّفِ؛ كغسلِ البدنِ من الجنابةِ ونحوِها، والنَّدبِ إلى سننِ الفطرةِ، من خِتانٍ وقصِّ شاربٍ، والسواكِ، وتقليمِ الأظفارِ، ونتفِ الإبطِ، وحَلقِ العانةِ، وحثَّنا على تجميلِ الهيئةِ، والتمسُّكِ بها، فأمرَ بإطلاقِ اللحيةِ، وتقصيرِ الثوبِ، وسترِ العورةِ، واحتجابِ النساءِ، وحثَّ على مسِّ الطيبِ، وعلى ما يحفظُ صحةَ العقولِ والأبدانِ، وأرشدَنا إلى ما يؤكلُ وما لا يؤكلُ، بل حرّمَ ربُّنا علينا مأكولاتٍ ومشروباتٍ تتحقَّقُ أذيّتها للأبدانِ، كلحمِ الخنزيرِ، والميتةِ، والخمرِ والمسكراتِ.

وندبَنا إلى التمسُّكِ بالأخلاقِ الحميدةِ ونبذِ الأخلاقِ الرذيلةِ، فأَمرَ بالمعروفِ والسعي في نشرِه، والنهي عن المنكرِ والسعي في منْعِه، وبالصدقِ في المعاملاتِ، والوفاءِ بالعقودِ والعهودِ، والبرِّ بالآباء والرحم، والصدقةِ على الفقراءِ، وإطعامِ الجياعِ، والإحسانِ إلى الجارِ، وإكرامِ الضيفِ، ونصرةِ المظلوم، وأَوجبَ ترْكَ الذنوبِ: من زنىً وخمرٍ، وغيبةٍ ونميمةٍ، وقذفٍ وسعايةٍ، وشهادةِ زورٍ، وانحرافٍ في الأحكام، أو تحريفٍ لحلالٍ أو حرامٍ، أو انحرافٍ في الأخلاقِ، وندَبَ إلى ما يُصلِحُ العلاقةَ بين الجنسين، فحثَّ على الزواجِ، وبيَّنَ الصحيحَ منه والفاسدَ الذي يعودُ على المجتمعِ بالآفاتِ والأمراضِ النفسيةِ والبدنيةِ، وشرعَ أحكامًا لعَقْدِه، وأحكامًا لفسْخِه، تضمنُ حقوقَ الاثنين.

وتعلُّمُ الفقهِ وتعليمُه أمرٌ ندبَ الشارعُ إليه، ورُتِّبت أجورٌ عظيمةٌ على حاملِه، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**...»[(١)]، فمن فقَّهه اللهُ بالدينِ فهي علامةٌ على الخيرِ.

(١) صحيح البخاري، رقم: ٧١، وصحيح مسلم، رقم: ١٠٣٧.

وممّا سبقَ نستدلُّ دلالةً قاطعةً على أَنَّ الفقهَ أَحدُ مقوماتِ ثقافتِنا، وإحدى ركائزِها؛ لأَنَّه يُظهِرُ صورةَ الشخصيةِ الإسلاميةِ بوضوحٍ ودقةٍ، فقد أعطى الفقهُ كلَّ ما يجبُ على المسلمِ عملُه وفِعلُه، فتعاملُ المسلمِ السياسيُّ والاقتصاديُّ والاجتماعيُّ ونحو ذلك، أغلبُه مستمَدٌّ من الفقهِ الإسلاميِّ.

ثالثاً: التاريخ الإسلامي

تاريخُ الأممِ والشعوبِ ركيزةٌ من ركائزِ حضارتِها، وعمودٌ من مقوماتِ ثقافتِها، فشخصيةُ المجتمعِ قائمةٌ على تاريخِه، وما سطّرَ من علومٍ، ورسمَ من وقائعَ، وأقامَ من حضارةٍ، قالَ ابنُ خلدونَ: «فإنَّ فنَّ التّاريخِ من الفنونِ التي تتداولُه الأُممُ والأَجيالُ، وتُشَدُّ إليه الرّكائبُ والرّحالُ ... وفي باطنِه نظرٌ وتحقيقٌ، وتعليلٌ للكائناتِ ومبادئِها دقيقٌ، وعلمٌ بكيفيّاتِ الوقائعِ وأَسبابِها عميقٌ، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمةِ عريقٌ، وجديرٌ بأَنْ يُعدَّ في علومِها وخليقٌ»[1]، فهو علمٌ أصيلٌ، وجديرٌ بأنْ يُعدَّ من العلومِ الأُصولِ في حياةِ البشريةِ؛ وحقيقٌ بأنْ يكونَ من مقوماتِ ثقافاتِها.

وتاريخُنا الإسلاميُّ مَجيدٌ، حافلٌ بما يمدُّ الشخصيةَ الإسلاميةَ بما يَبنيها ويحفظُ قوامَها، ويساعدُها في الحفاظِ على أصولِها ومنهجِها وهيئتِها، وهو الحبلُ الذي يُغذِّي الشبابَ المسلمَ ويصونُ عقليتَه، فلا بدَّ من ربطِ جيلِ الأمةِ المسلمةِ بماضيها العريقِ قبلَ إطلاعِهم على الحاضرِ وثقافاتِ الأُممِ الأخرى؛ كيلا ينبهرَ بحضاراتٍ غريبةٍ عن واقعِه، وثقافاتٍ مخالفةٍ لمبادئِه، وهو لم يطَّلعْ على تاريخِه أو يتشبَّعْ بماضيه، على أنْ يكونَ ذلك البناءُ والصونُ على قدرٍ كبيرٍ من الحذرِ؛ لئلا تزِلَّ القدمُ، ويهفوَ القلمُ؛ فيمضي البناءُ بِناءً قوميًا، وتصيرُ النهضةُ نهضةً قوميةً، تُلقي

(١) تاريخ ابن خلدون: ٦، من مقدمة المؤلف.

بشابِنا ورجالِنا إلى ما قبلَ الإسلامِ، وتحاولُ ربطَهم بحبالٍ مزيفةٍ، فتلك دعواتٌ أرْدَت الأمَّةَ، وعاقَتها عن السيرِ على صراطِ اللهِ المستقيم[١].

والتاريخُ الإسلاميُّ أَحَدُ مقوماتِ ثقافتِنا؛ لأنَّه يجسِّدُ مسيرةَ الأُمَّةِ الإسلاميةِ، ويُبيِّنُ مدى ارتباطِها بمنهجِها الإسلاميِّ، ونتائجَ ذلك الارتباطِ؛ ليُعضِّدَ ارتباطَ الفردِ والمجتمعِ بأصولِ دينِهم، التي مَن تمسَّكَ بها نالَ من العلمِ والمعرفةِ والرفعةِ والسيادةِ مثلَما نالَ أجدادُه، فهو درْسٌ عمليٌّ للجيلِ المسلم.

كما أنَّه يُحقِّقُ غايتَه الأولى للشخصيةِ الإسلاميةِ، وهي الدروسُ والعِبرُ من الأحداثِ والوقائعِ، وهذا ما بيَّنَه القرآنُ العظيمُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

فلابدَّ من ربطِ الجيلِ المسلمِ بماضيه، وتعريفِه بذلك الماضي العريقِ؛ لتنبنيَ شخصيتُه الإسلاميةُ، وتكتملَ رؤيتُه، ويتغذى عقلُه وروحُه، بعقيدتِه ومنهجِه، وتقاليدِه الإسلاميةِ، وأحكامِه الشرعية.

رابعاً: اللغة العربية

لا شكَّ أنَّ لغةَ أي مجتمعٍ؛ إحدى الأُسسِ التي تقومُ عليها ثقافتُهم، وتكتملُ بها شخصيتهم، فهي وِعاءُ فِكرِهم، وقناةُ التواصلِ فيما بينَهم، والوسيلةُ لفهمِ دينِهم ومعتقداتِهم.

واللغةُ العربيةُ أفضلِ اللغاتِ على الإطلاقِ[٢]، لأنَّها حملَتْ أفضلَ الكتبِ

---

(١) يُنظر: مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها، صباح محمد جاسم، مجلة ديالى، العدد ٤٤، سنة ٢٠١٠: ص ٦٩٧.

(٢) ينظر: فصول في الثقافة والأدب، علي الطنطاوي: ١٥١.

السماويةِ، وخيرَ أديانِ البريةِ، بل جعلَها اللهُ ﷻ لغةَ أهلِ الجنةِ، فيكفينا فخرًا أنَّها لغةُ القرآنِ العظيمِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وهي لغةُ القرآنِ الذي يُتَعَبَّدُ للهِ بتلاوتِه بها، وهي لغةُ المسلمين، ولغةُ العربِ الذين هم مادةُ الإسلامِ.

قالَ ابنُ فارسٍ: «قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، فوصَفه جلّ ثناؤه بأبلغِ مَا يوصَفُ به الكلامُ وهو البيانُ، قال جلّ ثناؤه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤]، فقدّم جلَّ ثناؤه ذِكرَ البيانِ على جميع ما توحَّدَ بخَلقِه وتفرَّدَ بإنشائِه، من شمسٍ وقمرٍ ونجمٍ وشجرٍ، وغيرِ ذلك من الخلائقِ المحكمةِ والنشايا المتقَنة، فلمّا خصَّ جلَّ ثناؤه اللسانَ العربيَّ بالبيانِ؛ عُلِمَ أَنَّ سائرَ اللغاتِ قاصرةٌ عنه وواقعةٌ دونه»[(١)]. فلغةٌ هذه مكانتُها عند الخالقِ ﷻ وعند الخلقِ، حريٌّ بنا أَنْ نعتني بها تعلُّمًا وتعليمًا، وتصنيفًا وتأليفًا، فهي لغةُ القرآن، ولغةُ البيانِ، وبتعليمِ أجيالِنا اللغةَ العربيةَ تعليمًا متقَنًا؛ تنفتحُ لهم بواباتُ فهْمِ كلامِ الله ﷻ وسنةِ نبينا محمدٍ ﷺ، وفهمِ تعاليمِ الإسلامِ، وبها يحصلُ التواصلُ مع الماضي، ومعرفةُ حضارتِنا، بل يحصلُ بها المسيسُ الروحيُّ مع ثقافةِ أجدادِنا وأدبِهم وفكرِهم وتصوراتِهم وطريقةِ عيشهم وتعاملِهم مع الأزماتِ، قالَ العلامة محمود محمد شاكر: «الحضارة كلّها والثقافة كلّها بعلومِها وآدابِها وفلسفتِها؛ عالةٌ على (الكلمة)، فلولا الكلمةُ لما كان لشيءٍ من ذلك كلِّه وجودٌ يُعقل»[(٢)].

---

(١) الصاحبي: ١٩.

(٢) أباطيل وأسمار: ٥١٦.

المطلب الثاني

دعم مقومات الثقافة الإسلامية وأثره في تنميتها

عرفْنا مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، ودعاماتِها التي تقومُ عليها ثقافةُ المسلمين، ولكن لابدَّ من دعمِ هذه المقوماتِ؛ لضمانِ نموِّ هذه الثقافةِ وتطوّرِها في المجتمعاتِ المسلِمةِ، والحفاظِ على ديمومتِها، وعدمِ ضعفِ هذه المقوماتِ في مستقبلِ الأمةِ القادمِ، ومقومات الثقافة الإسلامية موجودةٌ في كلِّ بلدانِ المسلمين، فالعقيدةُ والفقهُ والتاريخُ واللغةُ موجودةٌ في أغلبِ بلدانِ المسلمين، في بطونِ الكتبِ، والجامعاتِ، ولكن لا بدَّ من ربطِ المسلمِ بهذه المقوماتِ وبعثِها في نفسه ودعمِها؛ ليتبنّى المسلمون هذه المقوماتِ، ومن ثَمَّ تنمو الثقافةُ الإسلاميةُ، وتكونُ حاضرةً في نفوسِهم، ماثلةً في شخصياتِهم.

إنَّ دعمَ مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ له أثرٌ كبيرٌ على المجتمعاتِ في البلدانِ الإسلاميةِ، والمجتمعاتُ المسلمةُ تفتقرُ إلى ما يَدعمُ هذه المقوماتِ، فيلزمُنا بناءُ الثقافةِ الإسلاميةِ في مجتمعاتِنا بناءً صحيحًا متينًا، قبلَ أنْ نُصدِّرَ هذه الثقافةَ إلى الخارجِ، على أنّي غيرُ معترضٍ على تصديرِها وتعميمِها، بل أُشجّعُ على ذلك، لكن ما عُدِمْتَه أو ضعُفَ عندك موجبُه، لا يمكنُ تصديرُه للآخرين أو إقناعُهم بقبولِه، فلا يَجمُلُ بي أنْ أدعوَ إلى أمرٍ لستُ ملتزِمًا به، أو أَنهى عن شيءٍ لستُ تاركَه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

من هنا رأيتُ أنْ أتحدَّثَ عن مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، وما يدعمُها ويساعدُ في نموها وسموِّها وتبنّي المسلمين لها، ويتمُّ دعْمُ هذه المقوماتِ بوسائلَ مختلفةٍ، وطرائقَ متعدِّدةٍ، أهمُّها ما يلي:

أولاً: حكومات تطبق الشريعة الإسلامية

حكوماتٌ تطبق الشريعةَ الإسلاميةَ تشريعًا وتحكيمًا، وتعليمًا وتنظيمًا، وإدارةً ودعوةً، ومنهجًا وسياسةً، وتعاملًا واقتصادًا، فلا يمكنُ لثقافةٍ أنْ تنموَ وتسودَ في مجتمعٍ بالمستوى المطلوبِ؛ ما لم يكن لها سندٌ وإمدادٌ من السلطةِ الحاكمةِ، فحين كانت الخلافةُ الإسلاميةُ تتبنّى الدينَ الإسلاميَّ في كلِّ مؤسساتِ الدولةِ؛ كانت ثقافةُ المسلمين في أعلى مستوى من النموِّ والرقيِّ، بحيثُ لا يوجدُ بين أفرادِها من يتنكّرُ لهذه الثقافةِ أو يحاولُ الانسلاخَ منها، فنجدُ الثقافةَ الإسلاميةَ ظاهرةً في شخصيةِ الحاكمِ، والوالي، والقاضي، والبائعِ، والفلاّحِ، وحتى الشاعرِ والقاصِّ، فلا يخرجُ أحدٌ عن هذه الثقافةِ الربانيةِ، لا في فكرٍ، ولا في أدبٍ، ولا في علمٍ أو نظرٍ، ولا في لباسٍ أو مأكلٍ أو مشرب.

فأصبحَت ثقافةُ المسلمين معروفةً لدى الأممِ الأخرى قاطبةً لما تبنّته الحكوماتُ الإسلاميةُ من العقائدِ الإسلاميةِ، والمبادئ، والقيمِ، والأخلاقِ، والمعاملاتِ، وليس الحكومات العربية كما يريدُ القوميون، أو كما يظنُّ كثيرٌ ممن انغرَّ بهذا الطِّلاءِ، وانخدعَ بذاك المِراء، فلا بدَّ من تبنٍّ حقيقيٍّ جادٍّ شاملٍ للشريعةِ الإسلاميةِ في كلِّ البلدانِ الإسلاميةِ؛ حتى تنموَ الثقافةُ الإسلاميةُ عندَ المسلمين وتصبحَ ثقافةَ المجتمعِ، لا الثقافةُ القومية أو العلمانية، فيجب أن يكونُ دينُ الدولةِ الإسلامَ بشكلٍ حقيقيٍّ فعليٍّ إجرائيٍّ، بحيثُ يُطبَّقُ في وزاراتِ الدولةِ ومؤسساتِها ودوائرِها، ويُنبَذُ كلُّ ما يخالفُ الدينَ الإسلامي، فتكونُ المحاكمُ شرعيةً، فلا يُحكمُ بالقوانينِ الوضعيةِ، ولا يُرجعُ إليها، ويكونُ التعليمُ شرعيًا،والمناهجُ الدراسيةُ مبنيةً على تعليمِ الشريعةِ الإسلاميةِ منذُ سنواتِها الأولى وحتى مرحلةِ التعليمِ العالي، تتوخى تعليمَ القرآنِ العظيمِ، والعقيدةِ الصحيحةِ، والفقهِ، والحديثِ، والتفسيرِ، واللغةِ، والتاريخِ.

وكذلك اقتصادُ الدولةِ يجبُ أن يكونَ وفقَ الشريعةِ الإسلاميةِ، فلا معاملاتِ ربوية مع الدولِ الأخرى، بل ترفضُ كلَّ معاملةٍ غيرُ شرعيةٍ، ولا تُنشأ مصارفُ ربويةٌ كما هو حالُ كثيرٍ من بلدانِ المسلمينِ اليوم، بل يكونُ هناكُ مصارفُ إسلاميةٌ، ومعاملاتٌ شرعيةٌ، واليوم بدأَت مصارفُ غربيةٌ تُطبّقُ النظامَ المصرفيَّ الإسلاميَّ؛ لتيقُّنِها من عدمِ جدوى النظمِ المصرفيةِ الأخرى، ونحن مازلنا نرفضُ أيةَ فكرةٍ تحاولُ التغييرَ في هذه الأنظمةِ الغربيةِ العلمانيةِ التي سيطرَت على حكوماتِ البلادِ الإسلاميةِ!

وإعلامنُا يجبُ أن يكونَ منضبطًا بالشريعةِ الإسلاميةِ في كلِّ مؤسساتِه ومرافقِه، وكذلك المجالاتِ الثقافيةِ، فأفضلِ ما يُميزُ ثقافتَنا أنَّها ثقافةٌ ربانيةٌ، نُثابُ عليها ونُؤجَرُ، ونتقرَّبُ بها إلى اللهِ ونُشكَرُ، فإذا تبنّت الحكوماتُ الإسلاميةِ الإسلامَ تبنّيًا حقيقيًا فعليًّا شاملًا، سادت الثقافةُ الإسلاميةُ في المجتمعِ، وحوفِظَ عليها، وعادَ المسلمُ يُعرَفُ بلباسِه القصيرةِ ولحيتِه، وبتجارتِه الأمينةِ النصوحِ، وبطريقةِ أكلِه ونوعِه، ويختفي المسلمُ ذو الهيئةِ العلمانيةِ، والتجارةِ الحديثةِ الربويةِ، والأكلِ بالشوكةِ وباليدِ اليسرى.

ثانياً: مؤسسات حكومية تتبنى الشريعةَ الإسلامية

مؤسسات الدولة ووزاراتها من أهمِّ الوسائلِ والأسبابِ التي تَدعمُ مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، فإذا كانت كلُّ المؤسساتِ تنتهجُ الدينَ الإسلاميَّ وتتبناه، وترسمُ أهدافَها العامةَ والبعيدةَ بما يتوافقُ معه، لسادَت الثقافةُ الإسلاميةُ مجتمعاتِ المسلمين، وتبنّاها الفردُ والمجتمعُ، فعلى المؤسساتِ التعليميةِ والتربويةِ في بلدانِ المسلمين أنْ تُعِدّ مناهجَ دراسيةً لا تعارضُ الدينَ الإسلاميَّ فقط، بل تتبنّى الدينَ الإسلاميَّ عقيدةً وفكرًا، ومنهجًا وفقهًا، وتعلّمًا وتعليمًا، فليس يرادُ منها نبذُ ما يخالفُ العقيدةَ الإسلاميةَ والشريعةَ الإسلاميةَ فحسب،

وإنّما يرادُ منها إعدادُ مناهجَ دراسيةٍ في العقيدةِ الإسلاميةِ الصحيحةِ في كلِّ مراحلِ التعليمِ، منذ بدايتِها وحتى تنتهي مع نهايةِ التعليمِ العالي، وفي الفقهِ كذلك، والقرآنِ الكريمِ، والتفسيرِ، والحديثِ النبويِّ، والتاريخِ الإسلاميِّ، واللغةِ، والأدب.

وكذلك المؤسساتُ الحكوميةُ الأخرى، الاقتصاديةُ، والثقافيةُ، والإعلاميةُ، والدعويةُ، عليها أن تتبنّى الدينَ الإسلاميَّ عقيدةً ومنهجًا، وأهدافًا، وهذا هو المطلوبُ من المؤسساتِ الحكوميةِ الإسلاميةِ، أنْ تدعمَ مقوماتِ ثقافتِنا، وتعملَ على تنميتِها والحفاظِ عليها، لا أنْ تقفَ موقفَ المحايدِ، وترفضَ بعضَ القضايا التي تعارضُ الدينَ الإسلاميَّ من كلِّ وجهٍ، نريدُ مؤسساتٍ حكوميةً إسلاميةً في كلِّ شيءٍ، في التعليمِ والاقتصادِ والإعلامِ، وفي إيجادِ الحلولِ الإسلاميةِ، والإجاباتِ الإسلاميةِ عن كلِّ ما يحدثُ في العالمِ ويستجد، ونحن نقرأُ ونشاهدُ كيف تتبنى المؤسساتُ الحكوميةُ في الأممِ الأخرى عقائدَها، ومنهجَها الدينيَّ، وكيف تعملُ على تنميةِ ثقافتِها، والحفاظِ عليها، وتربيةِ أبنائها عليها.

فاليهودُ يُدرّسون خَمسَ موادَّ دراسيةٍ من أُصولِ دينِهم في المراحلِ الابتدائيةِ في مدارسهم، بل هناك جامعاتٌ غربيةٌ مشهورةٌ أُسستْ على عقائدِ اليهودِ ومناهجِهم الدينية [١]، والمؤسساتُ الشيوعيةُ تتبنى العقيدةَ الشيوعيةَ في كلِّ مفاصلِها التعليميةِ والتربويةِ، سواءٌ على مستوى التأصيلِ في المناهجِ، أو على المستوى الظاهريِّ والشكليِّ.

(١) يُنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري: ٩/ ٣٤.

ثالثاً: جامعات إسلامية متخصصة

إنَّ وجودَ جامعاتٍ إسلاميةٍ متخصصةٍ تستمدُ رؤيتَها من الدينِ الإسلاميِّ، وترسمُ منهجَها على أنوارِ النبوةِ، وتُصَبُّ أهدافُها العامةُ والخاصةُ في خدمةِ الدينِ الإسلاميِّ، وخدمةِ عقيدتِه، والرقيِّ بثقافتِه، يضمنُ إلى حدّ كبيرٍ نموَّ ثقافتِنا، وازدهارَ حضارتِنا، والحفاظَ على عقيدتِنا ودينِنا، فبهذه الجامعاتِ المتخصصةِ نستطيعُ بناءَ الخطباءِ الواعظين، والدعاةِ المحسنين، الذين بهم يتمُّ جزءٌ كبيرٌ من تنميةِ ثقافتِنا، وهذا ما حصلَ فعلًا في البلدانِ التي أسست لجامعاتٍ إسلاميةٍ متخصصةٍ.

فعلينا إذن أنْ ندّرسَ الثقافةَ الإسلاميةَ في جامعاتِنا كافةً[1]، الإسلاميةِ وغيرِها، كما يفعل الشيوعيون والنصارى واليهودُ والبوذيون والهنودُ وغيرُهم، وأن نَحذر مما يُفعَلُ بأبنائنا في كثيرٍ من البلدانِ الإسلاميةِ؛ حيث يُدَرَّسون ثقافاتٍ غربيةً، ويُربّون تربيةً علمانيةً أو قوميةً موغلةً في القِدمِ، هدفُها هدمُ مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، وقطْعُ الروابطِ بينَ أبناءِ الأمةِ الإسلاميةِ وماضيها الزاهرِ.

رابعاً: مراكز إسلامية دعوية

من المهم لدعمِ مقوماتِ الثقافةِ الإسلاميةِ، وتنميةِ ثقافتِنا، وجودُ مراكزَ إسلاميةٍ دعَويةٍ، تعملُ على التعريفِ بالإسلامِ وعظمتِه، وعقيدتِه ومبادئِه وأحكامِه وشرائعِه، ولابدَّ من وجودٍ لهذه المراكزِ في البلدانِ الإسلاميةِ؛ لأَنَّ

---

(١) يُنظر: دور الجامعات في تنمية الثقافة الإسلامية لدى المجتمعات، د. حسين محمد الربابعة، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، يناير ٢٠٠٧: ص ٨٧.

المسلمَ بمسيسِ الحاجةِ - دائمًا - إلى ما يُغذِّي ثقافتَه، ويُنمِّيها.

والمراكزُ الإسلاميةُ الدعويةُ تعملُ على تغذيةِ ثقافةِ المسلمِ وتنميتِها، وتجعلُه مرتبطًا مع ثقافتِه بصورةٍ مستمرةٍ ودائمةٍ؛ لأَنَّ انفصالَه عمَّا يغذّي ثقافتَه؛ يؤدي إلى ضعفِ مقوماتِ هذه الثقافةِ بداخلِه، ومن ثَمَّ الابتعادُ عنها، وقد يؤدي ذلك إلى التنكُّرِ لها، فتكونُ عاقبةً لكلِّ وسائلِ دعمِ مقوماتِ ثقافتِنا إذا ضعُفَ ارتباطُ المسلمِ بها، أو انقطعَ الاتصالُ بها.

المطلب الثالث

الأسباب التي أدت إلى طمس الثقافة الإسلامية في كثير من بلاد المسلمين

وهي كثيرةٌ ومتنوعةٌ، ولكنَّني سأتحدّثُ عن التي أثَّرت في ثقافتِنا تأثيرًا بلغَ النخاعَ، ووصلَ القاعَ، بحيثُ غَدَت الثقافةُ الإسلاميةُ ثقافةً غريبةً رجْعيةً متخلِّفةً في العديدِ من بلادِنا، ذلك حينَ ابتعدَ أهلُ الإسلامِ عن أُصولِها، وضعُفَ دعمُ مقوماتِها، وسأتحدَّثُ عن بعضِ الأسبابِ التي أدّت إلى طمسِ الثقافةِ الإسلاميةِ في بلادِنا، وبالتحديد عن ثلاثةٍ منها، هي: الابتعادُ عن الدينِ، والقوميةُ، والعلمانية، وقد اقتصرتُ على هذه الثلاثةِ لأنَّني أرى أَنَّ طمْسَ الثقافةِ الإسلاميةِ في بلادِ المسلمين مرَّ بثلاثِ مراحلَ، الأُولى: الابتعادُ عن الدينِ، وقد مرَّت بها العديدُ من البلادِ الإسلاميةِ قُبيلَ سقوطِ الخلافةِ الإسلاميةِ العثمانيةِ، وبُعيدَها، ثمَّ استمرَّ ذلك الابتعادُ حتى جاءت المرحلةُ الثانيةُ التي تمَّ فيها تفريغُ[1] أفكارِ أجيالِ الأمةِ الإسلاميةِ من محتوياتِ مقوماتِ ثقافتِهم، ثمَّ ملءُ ذلك الفراغِ بدعواتٍ هدَّامةٍ لها أُصولٌ عندَ الأمةِ، وقد يكونُ لها قبولٌ في مجتمعاتِها، وهي دعوى القوميةِ التي ضربَت الأمّةَ بظهرِها، وأنهكَت قواها، ثمّ مهَّدت هذه الدعوى الخبيثةُ لدعوى أخبثَ منها وأمضى هي العلمانيةُ، وهي المرحلةُ الثالثةُ التي مرّت بها الثقافةُ في البلادِ الإسلاميةِ. وسنأتي إلى بيانِ ذلك بشيءٍ من التفصيل.

---

(١) يُنظر: المتنبي، محمود محمد شاكر: ٢٠ وما بعدها.

أولا : الابتعاد عن الدين

من أخطرِ الأسبابِ التي أودت بأُمتِنا وطمَست ثقافتَنا: البعدُ عن الدين، والتنصلُ عن فرائضِ ربِّ العالمين، والمجاهرةُ بالمعاصي والإصرارُ عليها، قالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، فحين نتولَّى عن دين ربِّ العالمين،ونُعرض عمَّا فيه من الآياتِ والذكْرِ الحكيمِ، يستبدلنا اللهُ بغيرنا، ويَكلُنا إلى أنفسنا، فيتولّانا الكفارُ، ويقودنا الفجارُ، ويكون مصيرنا النار.

فالابتعادُ عن العقيدةِ الإسلاميةِ يورثُ البدعَ والخرافاتِ، ويزيدُ في الجهالاتِ، ثمَّ يوصلُ إلى الشركِ بربِّ السمواتِ - نسألُ الله العافية - والكفرِ بما جاءَ من البيناتِ، بل يوصلُ الابتعادُ عنها وتركُها إلى الإلحادِ وإنكارِ وجودِ ربِّ البرياتِ، وهذا واللهِ حصلَ في بعضِ البلادِ الإسلاميةِ التي يُحسَدُ أهلُها عليها.

فحين ابتعد بعضُنا عن عقيدةِ التوحيدِ التي خُلِقَ العبادُ من أجلِها ومن أجلِ إفرادِ اللهِ ﷻ بالعبادةِ، أورثَ لهم ذلك عبادةً للقبورِ، وإيمانًا بالبدعِ والمنكراتِ، فظهرَت لهم الشبهات، فقادَتهم إلى المعاصي والشهوات، قالَ ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فمَن انسلخَ عن آياتِ ربِّه؛ أتبعَه الشيطانُ فأغرقَه في الشبهات، ثمَّ يصيرُ من الغاوين الذين يتّبعون الشهواتِ، ومَن تركَ أحكامَ ربِّه ﷻ عملَ بأحكامِ العقولِ

القاصرةِ، فصارَ يتحاكمُ إلى غيرِ شرعِ اللهِ ﷻ، وينتهجُ غيرَ نهجِ محمدٍ ﷺ، ففسدَت دنياه، وخربت آخرتُه، وضاعت مصالحُه، وخسرَ مآله، فلا أحكامَ لديه ولا فقه، ولا سبيلَ له إلى النجاةِ ولا وجه، وانقطعَ بماضيه اتصالُه، فقطِّعت أوصالُه، فصارَ يتسبَّبُ الأسبابَ، ويطرقُ كلَّ باب، فانفتحت له أبوابُ الغربِ على مصراعيها، فجعلَ يغرفُ من مائهم ويشربُ علَّه أنْ يُروى، فيجاري ثقافاتِهم، ويسيرُ على منوالِهم، فضاعَ وصارت ثقافتُه لُمامةً من ثقافاتٍ شتّى، لا تمتُّ إلى الإسلامِ بصلةٍ، وإلى العروبةِ بقرابةٍ، ولا إلى العقولِ بسبب، ومن بلدانِ المسلمين من تنكَّرَ للثقافةِ الإسلاميةِ، وتنكَّرَ للإسلامِ جملةً وتفصيلًا، ولم يدعم مقوماتِ ثقافتِنا، بل منهم مَن حاربَها، وعمِلَ على هدمِها؛ رغبةً في الجديدِ، وركضًا وراءَ كلِّ بريقٍ، ولهثًا خلفَ كلِّ ناعقٍ.

ثانيا: القومية

عرّفها صاحبُ موسوعة الأديان بأنَّها: «حركةٌ سياسيةٌ فكريةٌ متعصبةٌ، تدعو إلى تمجيدِ العربِ، وإقامةِ دولةٍ موحدةٍ لهم، على أساسٍ من رابطةِ الدمِ واللغةِ والتاريخِ، وإحلالِها محلَّ رابطةِ الدينِ، وهي صدىً للفكرِ القومي الذي سبق أنْ ظهرَ في أوروبا»[(١)].

هذه هي المرحلةُ الثانيةُ التي مرّت بها ثقافةُ المسلمين؛ فحين ابتعدوا عن دينِهم وعقيدتِهم، ذهبوا يبحثون عن أصلٍ يستندون إليه، وركيزةٍ يتكؤون عليها، وأساسٍ يجتمعون عليه، ووشائجَ تربطُهم.

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع بن حماد الجهني: ١/ ٤٤٤.

وقد عملَ أعداءُ الإسلامِ على تفتيتِ الوحدةِ الدينيةِ بمختلفِ الوسائلِ، حتى عثروا على السلاحِ الخطيرِ القادرِ على تفتيتِ الأُمَّةِ الإسلاميةِ مع ضعفِ الإسلامِ فيهم، إنه سلاحُ القوميةِ الذي فرّق المسلمين إلى قومياتٍ شتّى، وأعادَهم إلى أُصولِهم الأُولى التي كانوا عليها قبَل أَنْ يجمعَهم الدينُ الإسلامي[١].

وتلا ذلك تمجيدٌ للعديدِ من الشخصياتِ[٢]، بُغيةَ تأثيرِها في الناسِ، وصناعةِ رموزٍ قوميةٍ تقودُ المجتمعاتِ إلى مَهاوي الردَى، وتخرُجُ به من الإسلامِ وعقيدتِه وتعاليمِه وأخلاقِه، إلى النزعاتِ القوميةِ النتنةِ، والدعاوى الحزبيةِ العفنةِ، أمثالِ سعد زغلول[٣]، وأحمد عرابي[٤]، وجمال عبد الناصر، وغيرهم.

والدعوةُ إلى القوميةِ دعوةٌ هدّامةٌ، قالَ عنها سماحةُ الشيخ ابن بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمَن خُبِّرَ أحوالَ القوميين، وتدبَّرَ مقالاتِهم وأخلاقَهم وأعمالَهم؛ عرَفَ أَنَّ غرضَ الكثيرين منهم من الدعوةِ إلى القوميةِ أمورٌ أخرى يعرِفها من له أدنى بصيرةٍ بالواقعِ وأحوالِ المجتمعِ، ومن تلك الأُمور: فصلُ الدينِ عن الدولةِ، وإقصاءُ أحكامِ الإسلام عن المجتمعِ، والاعتياضُ عنها بقوانينَ وضعيةٍ ملفّقةٍ من قوانينَ شتَّى، وإطلاقُ الحريةِ للنزعاتِ الجنسيةِ والمذاهبِ الهدّامةِ - لا

---

(١) يُنظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبدالرحمن حبنَّكة: ٣٣٤.

(٢) للمزيد يُنظر: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد بن حسين العفاني، فقد ألفه بهذا الصدد، جزاه الله خيرا، فأجاد وأفاد، وكشف الغطاء عن كثير من الرموز التي غُشيَت بها الأُمة.

(٣) م، ن: ١/ ١٠٢.

(٤) م، ن: ١/ ٧٧.

بلَّغهم اللهُ مُناهم - ولا ريبَ أنَّ دعوةً تُفضي إلى هذه الغاياتِ؛ يرقُصُ لها الاستعمارُ طربًا، ويساعدُ على وجودِها ورفعِ مستواها - وإن تظاهر بخلاف ذلك - تغريرًا للعربِ عن دينِهم، وتشجيعًا لهم على الاشتغالِ بقوميتِهم، والدعوةِ إليها والإعراضِ عن دينِهم»[1].

والعروبةُ والإسلامُ ليسا ثنائيةً من الثنائياتِ المتضادةِ، ولا هما ثقافتانِ مختلفتانِ، إنَّهما متلازمانِ مُركَّبانِ، لا يمكنُ فصلُ أحدِهما عن الآخرِ، أو التعاملُ مع واحدٍ دونَ الأخرِ، فالعروبة امتزجَت بالإسلامِ منذ جاء، وانصهرَت منذ دخلَ الدينُ قلوبَ العربِ، وامتنَّ اللهُ عليهم بالإسلامِ، وشرَّفَهم بـ(لا إلهَ إلا اللهُ، محمدٌ رسولُ الله)، فالقرآن العظيمُ نزلَ بلغة العربِ، والنبي محمدٌ ﷺ عربيّ، والعربُ مادةُ الإسلامِ، والعربُ بُنيت حضارتُهم بالإسلامِ، وسادوا بحمْلِ هذا الدينِ.

ففي العراق عملَ (حزب البعث العربي الاشتراكي) على طمسِ الثقافةِ الإسلاميةِ بكلِّ ما أُوتيَ من دجلٍ ومكرٍ وخُبثٍ، ابتداءً من قطعِ الروابطِ بين العروبةِ والإسلامِ، والمناداةِ بفصلِ الدينِ عن السياسةِ، والمساواةِ في نظرتِه للأمورِ بين شريعةِ حمورابي وشِعرِ الجاهليةِ، وبين دينِ محمدٍ ﷺ وبين ثقافةِ المأمونِ، وجعْلِها جميعًا تتساوى في بعثِ الأُمةِ العربيةِ وفي التعبيرِ عن شعورِها بالحياةِ.

ورأَى حزبُ البعثِ أنّ الاشتراكيةَ شرطٌ أساسٌ لبقاء الأمةِ العربيةِ وتقدُّمِها، وأنَّ الرابطَ الوحيدَ هو القوميةُ، وجرَّدَ الدستورَ العراقيَّ من كلِّ القوانين التي

(١) نقْد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: ص٨.

تمُتُّ إلى الإسلامِ بصلةٍ، بل إنّ كلمة (دين) أو (إيمان) لم تَرِدْ في الدستور العراقي، ويرى الحزبُ أنّ الظاهرةَ الدينيةَ ظاهرةٌ سلفيةٌ متخلّفةٌ في النظرةِ والممارسةِ، يجب أنْ يتَّجِهَ النضالُ نحوَها، وفي توجيهاتِهم لا يشيرون إلى حرمة الزنا، ولا يشيرون إلى العلاقةِ مع العالمِ الإسلاميِّ، ولا يشيرون إلى التاريخِ الإسلاميِّ، عقيدتُهم ماركسيةٌ، وفكرُهم علماني، ظُلماتٌ فوقَ ظُلماتٍ، إذا أخرجَ أحدُهم يدَه لم يكدْ يراها[1].

وأنا حين أتحدَّثُ عن البعثيةِ وعن طمْسِها للثقافةِ الإسلاميةِ، أتحدَّثُ عن واقعٍ مُرٍّ عِشتُه، وثقافةٍ قوميةٍ علمانيةٍ عُلِّمْتُها، وعن هجمةٍ شرسةٍ خبيثةٍ على الإسلامِ أدركتُها بعدَ حين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

إنَّ حزبَ البعثِ عمِلَ على طمسِ ثقافتِنا، ابتداءً من فكرةِ تحريرِ الشعبِ من نظامِ الملَكيةِ التي ياليتَها بقِيَتْ وبقِينا، ثمَّ دخولِ النظامِ الجمهوريِّ، وبدايةِ عملِ منجزاتِ ثورتِهم، والتحدّثِ بها، بُغيةَ أنْ يُرسِّخوا في الناسِ فكرةً مَفادُها أنَّهم هم المخلِّصون الذين أخرجوا الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ وأنقذوهم من الجوعِ والأمراضِ والجهلِ، إلى الانتعاشِ والصحةِ والعلمِ، كلُّ ذلك الذي جاء به البعثُ من الأعمالِ الظاهرةِ والمنجزاتِ، يوازيه عملٌ باطنٌ خبيثٌ، بدأ بغلقِ المدارسِ الدينيةِ القديمةِ ودُورِ العلمِ وإهمالِها، وإلغاء جعْلِ نصيبٍ للعلومِ الدينيةِ في المؤسساتِ التعليميةِ الأُولى والمنتهيةِ، والجامعيةِ والعليا، فلا تكادُ تجدُ رجلًا مختصًا بالعلومِ الشرعيةِ، فضلا عن محاربةِ العلماءِ وطلبةِ العلمِ، والزجِّ بهم في السجونِ، وقَتْلِ بعضِهم، وهروبِ بعضهم خارجَ البلدِ، بل وصل الأمرُ إلى إلغاءِ منصبِ (مفتي الديارِ العراقية) بعدَ قيامِ ثورتِهم - لا ردَّهم الله -

(١) يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١/ ٤٧٠ - ٤٨٥.

وإهمالِ المساجدِ، وتخريبِها، حتى إنَّك لا تكادُ ترى شابًا يصلي أو شابّة، إلا القليل من كبارِ السنِّ، ولا وجودَ لزكاةٍ أو صدقةٍ ونحوِها، وأمَّا أحكامُ النكاحِ والطلاقِ ونحوِها، فالفتاوى فيها ممّا يبعثُ على الحزنِ والأسى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

ووصلَ الأمرُ إلى غلْقِ بعضِ المساجدِ، وهذا ما حصلَ لمسجدنا (مسجد الشهيد) الذي كنتُ أَؤمُّ فيه[١]، وتمَّ اعتقالُ مجموعةٍ من طلبةِ العلمِ من كلِّ منطقةٍ؛ ليَصدُرَ بحقِّهم حُكمُ الإعدامُ؛ ضربةً لهذه الدعوةِ، ولكنْ شاءَ اللهُ سبحانه وتعالى أنْ ينجوا، وكتبَ اللهُ لهم البقاءَ.

وفي التعليمِ عملوا على تفريغِ الجيلِ[٢] المسلمِ من ماضيه، وربطوه بما قبلَ حضارتِه، فربَّوا الناشئةَ على القوميةِ والعملِ بالعلمانيةِ، وذكر فيلسوفُهم ساطع الحصري ما عمل بمجتمعنا في العراق، حتى أثبتوا في المناهجِ المدرسية أَنَّ العثمانيين كانوا محتلين للبلادِ العربيةِ، ولم يُسمّوا حُكمَهم بـ (الخلافة) مطلقًا.

إنَّ منجزاتِ حزبِ البعثِ أدت إلى طمسِ ثقافتِنا الإسلاميةِ في العراقِ، طمسًا تَدمى له القلوبُ، قد يفوقُ سقوطَ بغدادَ على يدِ المغولِ، فتلك سقطةٌ كان أهلُ الإسلامِ فيها على قدرٍ كبيرٍ من العلمِ والمعرفةِ، ويعلَمون ما حلَّ بهم، وأَنَّ دينَهم بقِيَ معهم، وثقافتَهم حافظوا عليها، وأَمَّا هذه السقطةُ التي أحدثَها البعثيون؛ فإنَّ أهلَ الإسلامِ فيها قد تمَّ سلْخُهم من دينِهم، ومعتقداتِهم، وثقافتِهم، ثمَّ مَلْؤُهم بعقيدةٍ مخالفةٍ للإسلامِ، وثقافةٍ محاربةٍ له، قطَّعت كلَّ حبلٍ يمُتُّ إلى الإسلامِ بِصِلة.

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ ... إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

---

(١) أُغلق المسجد دون أي سبب عام ٢٠٠٠ م مدة أربعةِ أشهر.

(٢) يُنظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر: ١٤٩ وما بعدها عن (التفريغ الثقافي).

ثالثا: العلمانية

العلمانية[١] (اللادينية أو الدنيوية): دعوةٌ إلى إقامةِ الحياةِ على العلمِ الوضعي والعقلِ، ومراعاةِ المصلحةِ بعيداً عن الدينِ، وتعني في جانبِها السياسيِّ: اللادينية في الحكمِ، وهو اصطلاحٌ لا صلةَ له بكلمةِ العلم، وقد اختيرت كلمةُ (علمانية)؛ لأَنَّها أقلُّ إثارةً من كلمةِ (لا دينية)، ومدلولُها: عزلُ الدينِ عن الدولةِ وحياةِ المجتمعِ، وإبقاؤه حبيساً في ضميرِ الفردِ لا يتجاوزُ العلاقةَ الخاصةَ بينه وبين ربِّه[٢].

وأولُ سهمٍ نشبَ من أولئك: الانفصالُ عن الماضي بزعم أنّه يَحولُ دون بلوغِ الأُمَّةِ مكانةَ مرموقةَ بين الأُممِ، وتطورِها وتقدُّمِها، وأنَّ الأُممَ الناهضةَ المتقدِّمةَ قد انفصلت عن ماضيها، وانسلخت عن تاريخِها، مع محاولةِ الفصلِ الكليِّ بين الإسلامِ والمسلمين، أو الجزئي قدرَ استطاعتِهم ومكرِهم[٣].

حصل حينها استبدالٌ للعقولِ والأفكارِ على حساب الإسلامِ وثقافتِه، وعلى حسابِ الأُمَّةِ وماضيها وحضارتِها[٤]، بحيثُ وصلَ الأمرُ ببعضِهم أن ينكرَ وجودَ اللهِ سبحانه وتعالى كما فعلَ أسلافُه الغربيون، والذين جاؤوا من بعدِهم يقولون: لا علاقةَ للربِّ - تعالى اللهُ عن ذلك - بالحياة إلا ما كان بين الإنسانِ وخالقِه بصورةٍ خاصةٍ، ونادوا بفصلِ الدينِ عن الدولةِ -وحصلَ ذلك-

---

(١) للمزيد يُنظر: (العلمانية، نشأتها وتطورها)، د.سفر الحوالي.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٢/ ٦٧٩، بتصرف.

(٣) انظر: أضواء على الفكر العربي الإسلامي، أنور الجندي: ١٠٦، وأجنحة المكر الثلاثة: ص١٩٧.

(٤) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، جمال سلطان: ١٠٥.

وبتطبيقِ مبدأ النفعيةِ، وحاولوا نشرَ الإباحية، وعملوا على الطعنِ في حقيقةِ الإسلامِ والقرآنِ والنبوةِ، وزعموا أنَّ الإسلامَ انتهى دَورُه، وشوَّهوا الحضارةَ الإسلاميةَ، وربُّوا الأجيالَ تربيةً لا دينية[١]، وجعلوا تحرُّرَ المرأةِ من أُصولِ دعوتِهم، فحمَلوها على أساليب الغرب في كلِّ شؤونها: في الزواجِ وفي الطلاقِ، وفي المشاركةِ في العملِ والإنتاجِ في شتى الميادين، وفي الزِّيِّ وفي المحافلِ والمراقصِ، إلى آخر ما هنالك[٢]، حتى آلَت الحالُ إلى واقعٍ شاعَ فيه الزنا، وشُرِعتْ فيه أبوابُ بيوتِ الدعارةِ والبِغاءِ بأذونٍ رسميةٍ، وعُمِّرتْ خشباتُ المسارحِ بالفنِّ الهابطِ من الغِناءِ والرقص والتمثيل، وسُنّت القوانينُ بإسقاطِ الحدودِ، وأنْ لا تعزيرَ عن رضا[٣]، وكانت العلمانيةُ- ومازالت- من الأسبابِ التي طمَست ثقافةَ المسلمين في كثيرٍ من بلادِهم، فلا يُحكمُ بشرعِ اللهِ فيها، ولا يعزّرُ العاصي، ولا يُقتصُّ من الجاني القصاصَ الشرعيَّ، ولا يُدرّسُ دينُهم في مؤسساتِهم التعليميةِ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(١) يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ٦٨٢ - ٦٨٣.
(٢) يُنظر: حصوننا مهددة من الداخل، محمد محمد حسين: ٦١.
(٣) حراسة الفضيلة، الشيخ بكر أبو زيد: ٩٤ – ٩٥. بتصرف.

الخاتمـــة

١ - المقومـاتُ التـي تقـومُ عليهـا ثقافتُنـا الإسـلاميةُ أربعـةٌ، هـي: العقيـدةُ الإسلاميةُ، والفقه الإسلاميُّ، والتاريخُ الإسلاميُّ، واللغةُ العربيـةُ، فـلا بـدَّ مـن معرفتِهـا، والتـدليلِ عليهـا، وبيـانِ أهميتِهـا، وأنَّهـا ثوابـتُ لا يمكـنُ المساسُ بها، ولا جعْلُها على طاولةِ الحوار.

٢ - أَنَّ تلك المقوماتَ موجودةٌ في كثيرٍ من بلدان المسلمين، لكنَّها تكادُ تكون معطَّلةً، فلا بدَّ من البحثِ عن وسائل تَدعمُ هذه المقوماتِ؛ لتنهضَ الثقافةُ الإسلاميةُ في المجتمعاتِ المسلمة.

٣- الحكوماتُ الإسلاميةُ أهـمُّ وسـائلِ دعـمِ مقومـاتِ ثقافتِنـا، مـن التـي تتبنَّـى الدينَ الإسلاميَّ تبنِّيًا حقيقيًّا في كـلِّ مؤسسـاتِها ومفاصـلِها، وخيـرُ مثـالٍ في هذا العصر: المملكةُ العربيةُ السعودية.

٤ - بيـانُ عـددٍ مـن الأسـبابِ التـي أدت إلـى طمـسِ الثقافـةِ الإسـلاميةِ في بـلادِ المسلمين، وبيانُ خطرِها، والتحذيرُ منها.

المصادر والمراجع

- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣.
- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير – الاستِشراق – الاستعمار، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني (ت١٤٢٥هـ)، دار القلم – دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- أضواء على الثقافة الاسلامية، د. نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٢٢هـ.
- أضواء على الفكر العربي والإسلامي، أنور الجندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد بن حسين بن عبد الله العفَّاني، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة – السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.
- تاريخ ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ)، تحقيق:خليل شحادة،دار الفكر، بيروت،ط١٤٠٨،٢هـ – ١٩٨٨م.
- جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، جمال سلطان، مركز الدراسات الإسلامية، برمنجهام – بريطانيا، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
- حراسة الفضيلة، فضيلة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين (ت١٤٠٢هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٤هـ –١٩٨٣م.
- دَور الجامعات في تنمية الثقافة الإسلامية لدى المجتمعات، د. حسين محمد الربابعة، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، يناير ٢٠٠٧.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ)،الناشر:محمد علي بيضون،ط١٤١٨،١هـ– ١٩٩٧م.

- (صحيح مسلم) المسند الصحيح، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (صحيح البخاري) الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.
- العلمانية، نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د. سَفر بن عبد الرحمن الحوالي، دار الهجرة.
- فصول في الثقافة والأدب، الشيخ على الطنطاوي، جمع وترتيب : مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٧.
- لمحات في الثقافة الإسلامية،عمر عودة الخطيب،مؤسسة الرسالة،ط١٤٢٥،١٥هـ.
- المتنبي، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- المدخل إلى الثقافة الإسلامية (مقرر جامعي)، مجموعة من أعضاء هيئة التدريس بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود، دار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، ط١٦، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط٣، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها، صباح محمد جاسم، مجلة ديالى - العراق، العدد ٤٤، سنة ٢٠١٠.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٢٠هـ.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،الدكتور عبد الوهاب المسيري،(د.ط)، (د.ت).
- نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز (ت١٤٢٠هـ)، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - إدارة الطبع والترجمة، ط٦، ١٤١١هـ.